الكادحون لعبة اليمين واليسار

« عضوية الحزب الشيوعي تعني
أن العضو ينتمي إلى طبقة ممتـــازة
ذات امتيازات ، وهكذا يتجمع في
لب الحزب أقوى المستثمرين » ! .

ميلوفان دجيلاس
الطبقة الجديدة

« وكيف يعنيني أمر الرعية إذا
لم يعـني ما يمسهم ؟ » !.

عمر بن الخطاب

من مهازل الدعوات الوضعية وتناقضات أحزابها ، أن قادة بعض هذه الأحزاب اليسارية ، واليسارية جداً ! يمتلكون في الوقت ذاته القصور والأموال والسيارات والإقطاعات الواسعة ولكنهم ـ نظرياً ـ يهتفون للعمال والفلاحين ولليسار الجذري العظيم صاحب المصلحة الحقيقية في الثورات والانقلابات التي رفعتهم إلى سدّة الحكم والمسؤولية بكل ما فيها من ثقل وعناء وسهر طويل من أجل حماية حقوق وآمال الطبقات الكادحة المسحوقة ومما يزيد من تأكيد يسارية هؤلاء القادة انتماء عددمن أصحاب الملايين إليهم وتصفيقهم ، في اجتماعاتهم الحافلة وخطبهم البتراء ، للمنجزات العظيمة التي شرّعت على الورق لكي تنصف المظلومين من الظالمين ، حتى أن بعض هؤلاء الملاّك اليساريين الكبار غدوا في طرفة عين (يساريين أكثر من اليسار) وكانوا من قبل (ملكيين أكثر من الملك) !.

إن المشكلة في أساسها مشكلة (أخلاق) ، فالمبادىء التي تأتي من فوق ، من خارج كيان الإنسان ، ووجوده وفطرته ، دون أن تجد سنداً من العقيدة والأخلاق والضمير في أعماق الإنسان نفسه ، لا تفعل فعلها في تحويل ذلك الإنسان إلى تعبير حيّ عن مبدئه ، إلى وجود عقائدي متحرك متوحد الذات بين الفكرة والتجربة ، بين الذات والموضوع ، بين الوسيلة والهدف.

ومهما كانت تلك المبادىء الفوقية الخارجية جذرية، ومهما ادعت من قرب إلى اليسار ورفضت اليمين ! فإنها لا بد وأن تفتح الباب على مصراعيه لحدوث التناقض الذي لا بد وأن يجيء عاجلاً أو آجلاً ! . وهكذا تبرز إلى حيز الوجود دوماً قيـــادات ثورية تعاني الازدواج المحزن بين ما تنادي به وما تفعله ، بين ما تقوله وما تسلكه .. قيادات تقف في أقصى اليمين عملياً وتنادي بأقصى اليسار في مجال النظريات والخطب والتصريحات والأحلام !.

وها كم ـ إن شئتم ـ بعض الحقائق الموجزة عن الازدواجية الاجتماعية التي تعانيها أشد اليساريات في العالم المعاصر علميـــة وثورية ! (الماركسية اللينينية) نقتطفهـــا من كتاب (الطبقة الجديدة) «لميلوفان دجيلاس» القطب الشيوعي اليوغوسلافي الذي لعب دوراً عظيماً في دفع الكتلة الشيوعية إلى الامام ، والرجل الثاني في يوغوسلافيـــا بعد « تيتو » ، ذلك البلد الذي حكمته الشيوعية عشرات السنين سعياً وراء مجتمع يسوده العدل الاجتماعي وفق أشد المذاهب عدالة وإنسانية ! « ميلوفان دجيلاس» الذي دخل الحزب الشيوعي رسمياً عام ١٩٣٢ وسجن بعد سنتين ، وما لبث أن قاد الثورة على الاحتلال الألماني إلى جانب « تيتو» عام ١٩٤١ . وفي عام ١٩٥٤ بدأ خلافه مع «تيتو» من أجل مطالبته باتباع النهج الاشتراكي الديموقراطي في الحكم . وقد أدى به هذا الموقف إلى أن يحكم بالسجن في السنة التـــالية مع وقف التنفيذ ، لكنه ما لبث أن اعتقل ثلاث سنوات بسبب انتقاده.

سياسة «تيتو» تجاه ثورة المجر ، وفي تلك الفترة ألف كتابه الشهير (الطبقة الجديدة) كتحليل موضوعي للنظام الشيوعي في واقعه التطبيقي ، ومن أجل كتابه هـذا حكم بالسجن تسع سنوات أخرى !.

يقول «دجيلاس» في كتابه : (البيروقراطية السياسية الشيوعية تستخدم الأملاك المؤممة وتتمتع بها وتتصرف فيها ـ ص ٦٧) . ويقول (عضوية الحزب الشيوعي تعني أن العضو ينتمي إلى طبقة ممتازة ذات امتيازات ، وهكذا يتجمع في لب الحزب أقوى المستثمرين - ص ٧٠) . ويقول : (إن علاقة الشيوعيين مع الدولة أو الحكومة هي علاقة تعبّد وثني (!!)فهم يتصرفون بالدولة أو الحكومة كما لو أنها ملكهم الخاص- ١١٦) . ويقول : (إن أنظمة الحكم الشيوعية هي شكل من الحرب الأهلية الخفية بين الحكومة والشعب - ص١٢١) . ويقول : (الانتخابات الشيوعية سخيفة . وصفها اللورد أتلي ببراعة إذ قال عنها أنها : « سباق يجري فيه حصان واحـد » ص ١٢٨) . ثم يقول : (البرلمانات هي عبارة عن أضرحة للنواب الذين تتألف منهم - ص١٣٠ -) .

هذا عن اليسار الأممي العلمي ! فماذا عن اليساريات الأخرى التي تعرج في منتصف الطريق ، لاهثة وراء المجتمع الذي تسوده الاشتراكية ، حيث لا ظالم ولا مظلوم ؟ . حقائق وتناقضات كثيرة كثيرة ، لا يحصيها عدّ ، ولا يمكن حصرهـا في عرض

سريع كهذا .. تناقضات شهدها الجميع منذ أن ابتلوا بلعبة اليسار واليمين ، حيث يقف اليساريون في قمة أجهزة الحكم والسلطان يستغلون ويتنعمون ويثرون ، ويتحولون بقدرة قادر إلى طبقة رأسمالية من نوع جديد يقترن بإرهاب أشد ، وكبت أقسى ، وظلم أسود تضيع في غمراته صيحات المظلومين ، تصيح لأن اليسار ـ رغم طبقيته واستغلاله وتنعمه وثرائه ـ يحكم باسم المظلومين والكادحين ! .

الإسلام ، ذلك الدين القيم ، هو العقيدة الوحيدة التي تغرس مبادئها في أرض حية من الضمير والأخلاق .. كل إنسان مسلم ـ بحق ـ هو عقيدته الحية تمشي على الأرض وتتفاعل مع الحياة ، وتتحرك في الواقع المعاش .. ليس ثمة مجال للتناقض بين المبادىء والأشخاص .. بين القول والعمل .. بين التوجيه والتنفيذ .. بين الفكرة المقولة والتجربة المعاشة .. إن ثمة صوراً رائعة .. مجيدة .. تمر أمامي الآن عن أولئك المسلمين الرواد الذين لم يعرفوا اليمين ولا اليسار ، ولكنهم عرفوا كيف تكون العدالة الاجتماعية بأعمق مفاهيمها وأسمى أخلاقياتها دونما أي تناقض أو ثنائية بين قيم العقيدة وتصوراتها ، وبين الرجال الذين يحملونها والذين بايعوا الرسول العظيم على تحمل مسؤوليتها حتى النهاية ..

كثيرون من الصحابة الكبار كانوا في جاهليتهم يملكون القصور والأموال والضياع ، وعندما أعلنوا إسلامهم تنازلوا بكل تجرد عن قصورهم وأموالهم وضياعهم ليعيشوا فقراء

محرومين من أجل قضيتهم الكبرى .. كثيرون منهم بلغوا أسمى المناصب ، ولكنهم لم ينسوا يوماً الأمة المسلمة ، ولم يغفلوا لحظة ، عن تجاربها الزاخرة بالسرّاء والضرّاء .. ها هوذا أبوبكر الصديق (رضي الله عنه) ينفق في سني الدعوة الأولى في مكة ثمرة كدحه وكده عبر عمر حافل نشط طويل .. أربعين ألف درهم .. لا يستبقي منها درهماً واحداً .. وعندما يسأله الرسول ﷺ : « وماذا أبقيت لعيالك؟ » يجيب الصدّيق : « أبقيت لهم الله ورسوله .. » . وها هو الصديق نفسه ، وقد اختارته الأمة ليكون خليفة رسول الله ﷺ ، يخرج يوماً فإذا بجارية تقول : « اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا . ذلك أن أبا بكر كان يحلب لها إبلها من قبل ، وهو فرد من عامة المسلمين ، أما وقد شغلته الخلافة فلن تجد المرأة من يقوم بهذه المهمة ! . ولكنه يسمعها فيقول : بلى والله لأحلبنها لكم ! فكان يحلبها لها كل يوم ! » .

وها هوذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لا يبيح لنفسه — بعد تسنّمه الخلافة — من الطعام والكساء أكثر مما لأي فرد من عامة المسلمين .. فلما جاء عام الجوع ، وأصاب المسلمين القحط ، أقسم ألا يذوق السمن حتى يفتح الله على المسلمين .. وبقي عامه على هذا الحرمان ، والمسلمون يرون حاله فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله حتى بسر وجهه من أكل الزيت ، مع قلة الطعام الذي يتناوله ، ورداءته ، فيرجونه أن يرأف بنفسه ، ويبيحون

له ـ عن طيب خاطر منهم ـ أن يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه .. ولكنه يرفض ذلك ، ويصرّ على رفضه الحاسم قائلاً: وكيف يعنيني أمر الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم ؟. يا لهـا من كلمات لا يفسرها إلا تصور موقف عمر نفسه وهو يعاني مع أُمته من أجل أن يعمق اهتمامه بمآسيها وأحزانها ..

وهذا عثمان بن عفان (رضي الله عنـه) يرى المسلمين وقد انقطعت مواردهم في بعض أيام أبي بكر ، ووقعوا في ضـائقة اقتصادية جاثمة .. ثم ما تلبث قافلته أن تجيئه ببضائع جمة كان قد استوردها من الشام ، فيسرع إليه التجار في المدينة ليتقدموا إليه بعرض سخيّ ، أن يربحوه بالدرهم درهمين ، فيردهم عثمان قائلاً : أعطيت أكثر من ذلك ، فيعرضون عليه أربعة دراهم ثم خمسة ، ربحاً صافياً للدرهم الواحد ، فيردهم في كل مرة.. قالوا : يا أبا حفص ، ما سبقنا إليك أحد ، ونحن كل تجار المدينة !فيقول: إن الله أعطاني عشرة أمثالها..ثم يقسم ليتركنها خالصة للمسلمين يردُّ بها عنهم غائلة الجوع .. ويقول الحسن البصري عن عثمان الخليفة : « كان عثمان يطعم الناس طعام الأمارة ويأكل الخل والزيت » ! .

صور كثيرة متلاحقة تمر أمامي عن مئات من المسلمين الرواد ، وقفوا مواقف كهذه ، وصمموا على البقاء حتى النهـاية مع أبناء الأمة التي منحتهم ثقتها ومقدراتها .. صور كثيرة ، بقدر صور

التناقضات المضحكة التي شهدتها تجارب اليساريات، علمية وغير علمية !.. وأكثر بكثير ..

على يد من تربى هؤلاء الرواد العادلون ، وممن قبسوا النور الذي صاغوا على هديه تجارب حياتهم وسلوكهم المتوحدة حتى الاعماق ، المستقيمة كالسهم ؟ ! اليس هو محمد ﷺ المعلم والقائد والقبس ؟ ! اليس هو الزعيم الذي يقدم تعاليمه ، لا دساتير ولا خطباً ولا كلمات أو نظريات علمية ! انما سلوكاً وممارسة وتجربة وعملا وواقعا معاشاً ينبض بالدم والوجدان .. ولننظر ..

في أحد الايام الأولى للهجرة.. أيام الجوع والفقر والمسغبة ، يلتقي في أحـــد أزقـة المدينة بجماعة من أصحـابه .. تكسو وجوههم الصفرة ، ويطوي أجسادهم العنـــاء وقلة الطعام .. يشتكون اليـه من الجوع ، ويكشفون عن بطونهم التي شد كل منهم عليها قطعة من حجارة ليسكت جوعتها.. فيبتسم الرسول برفق وحنـان ، ولا يعزّيهم بالكلمات .. فالكلمات في ساعات الجـوع الكافر لا تطعم ولا تغني من جوع .. يكشف لهم عن بطنه فاذا به قد شدّ عليها قطعتين من الحجارة الصمّاء ! !

روى البخاري أن انس بن مالك قال : ما أعلم النبي ّرأى رغيفا مرققا حتى ألحق بالله ولا رأى شاة سميطا بعينه قـط !! وعن عائشة قالت : انا كنا لننظر الى الهـلال ، ثلاثة اهلـّـة في شهرين ، وما اوقدت في ابيات رسول الله نار .. فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء .

وقالت عائشة ايضاً : لقد توفي رسول الله وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبد إلاشطر شعير في رفّ لي .. وعن ابي ذر قال : كنت أمشي مع النبي في حرة المدينة ، فاستقبلنا أُحُد . فقال : يا ابا ذر ، قلت لبيك يا رسول الله. فقال : ما يسرني ان عندي مثل أُحُد هذا ذهبا ، أموت وعندي منه دينار الا ان أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه . ثم مشى فقال : ان الاكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، الا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم ... !!

ويحدثنا محمد الغزالي في كتابه (فقه السيرة) قائلاً : ان هذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساء الرسول ﷺ ان يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل، لقد جئن اليه من بيوتات كبيرة ، واكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة إما مع ابائهن وإما مع رجالهن السابقين . فلا عجب اذا تململن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة ، واجتمعن ليسألن الرسول مزيداً من النفقة، تتزعمهن عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت عمر .. وحزن رسول الله لهذه المظاهرة . إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وابصار المؤمنين والمؤمنات ترنوا اليه من كل ناحية . وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين . فاذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء

من أمته ان يذهلوا عن كل شيء الا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟ لذلك رفض النبي الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة ، و كره منهن هذا التطلع فقرر مقاطعتهن حتى شاع بين الناس أن النبيّ طلق نساءه جملة . . . وفزع أبو بكر وعمر لهذه الاشاعة .. فذهبا يستأذنان ليدخلا عليه ، وليتعرفا جلية الخبر. فلما دخلا وجدا النبي صامتاً وحوله نساؤه واجمات ! ! وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا ... الا ان جو الحزن كان يخيم على المكان ، فقال عمر : لاكلمن رسول الله لعله يضحك ! فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ويعني زوجته سألتني النفقة لوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا ناجزه وقال : هن حولي يسألنني النفقة . فقام أبو بكر الى عائشة يؤدبها وقام عمر الى حفصة . كلاّ يقول : تسألان النبي ما ليس عنده !! ... وهجرهن النبي شهراً حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب اليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته في حياته ! وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة. وكان هذا الدرس كافياً ليمحو آخر ما في أنفسهن من رغبة تتجاوز المباحاة المشتهاة ! فاخترن جميعاً البقاء مع النبي .. وعشن معه للجهاد والمواساة والتواضع والخدمة ... » .

ونعود الى اليسار ، من أدناه الى أقصاه ، لنراه لا يزال يحمل شعارات الثورة من اجل العدل والمساواة ، مرتفعاً بها ،

بخفة وتمرس ورشاقة ، على اكتاف الكادحين والجائعين الى سدة الحكم والسلطان حيث تبدأ مأساة (الطبقة الجديدة) بحيازة هؤلاء القادة للأمـــوال والقصور والسيارات ، وانغمارهم في الملاهي والترف والملذات ولتذهب القاعدة الكادحة الى جهنم ، وليحيا اليسار القيادي العظيم ..